الدَّور السِّيَاسِي للعُلَمَاء في دولة الأغالبة
[١٨٤- ٢٩٦هـ/ ٨٠٠- ٩٠٨م]

إعداد: د. محمود عبد المقصود ثابت
مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية الآداب- جامعة بورسعيد

المقدمة:

كان اختيار هذا الموضوع؛ للدَّور الكبير الذي يمثله العُلَمَاء من أَهَمِيَّة في تاريخ الأمم وحضارتها، وكانت دولة الأغالبة سُنِيَّة المذهب متمسكة بمبادئ وتعاليم الإسلام، ومن ثَم كان للعُلَمَاء في عهدها وضع خاص ومكانة متميزة، فقد أصبح للعُلَمَاء في هذا العهد دور كبير وكلمة مسموعة ومكانة مرموقة، ومن ثم كان سعينا لإبراز ذلك كله، وكيف استغل العُلَمَاء هذه المكانة العالية للتأثير في الجانب السِّيَاسِي، وهل كان هذا التأثير سلبيّاً أم إيجابيّاً؟.

وللوصول إلى الهدف من هذه الدراسة بدأت بتمهيد قسمته إلى قسمين، الأول في التعريف بدولة الأغالبة، ثم عن مكانة العُلَمَاء فيها، ثم تطرقت لموضوع البحث وهو دور العُلَمَاء السِّيَاسِي فيها، تناولت فيه دورهم في تثبيت دعائم حُكْم الأغالبة من خلال رفض العُلَمَاء دعوات الخروج على حُكْم الأغالبة، وسعيهم في التقريب بين الثَّائرين والحُكَّام الأغالبة، وشهادتهم على بيعة العهد، والدُّعَاء للأُمَرَاء الأغالبة وتذكيرهم بأمر الرَّعِيَّة، ثم عن علاقة العُلَمَاء بإدارات الدَّولَة السِّيَاسِيَّة كالأُمَرَاء والولاة وأصحاب النُّفُوذ السِّيَاسِي، ثم عن موقفهم من الأحداث السِّيَاسِيَّة والثورات، وختمته بدورهم في أعمال الحرب والجهاد.

التمهيد:

١- التعريف بدولة الأغالبة:

تنسب دولة الأغالبة إلى الأغلب بن سالم التميمي والد إبراهيم مؤسس الدَّولَة[١]، هي دولة إسلامية، سُنِيَّة المذهب، قامت في شمالي أفريقية سنة١٨٤هـ/٨٠٠م. عاصمتها الأولى مدينة القصر القديم ثم رقادة ثم تونس[٢]، وكان نظام الحُكْم فيها فردياً وراثياً، مؤسسها إبراهيم الأَوَّل بن أبي العرب الأغلب بن سالم التميمي، كان إدارياً وشجاعاً وعالماً وخطيباً[٣]. وقد وقع عليه اختيار هارون الرَّشِيد[١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م] فولاه على الزَّاب[٤]؛ فاضطلع بالأمر وأحسن السِّيرَة[٥]، ثم استقل بالولاية غير منازع وتوارثها بنوه[٦].

وكان آخر من تولى إفريقية قبل إبراهيم بن الأغلب الوالي محمد بن مقاتل العكي، وكانت سيرته في الرَّعِيَّة غير محمودة[٧]، كما اختلف عليه الجُنْد لإنقاص رواتبهم[٨]، كل ذلك شجع الرَّشِيد في تعيين إبراهيم بن الأغلب مكانه[٩].

وقد استطاع إبراهيم بن الأغلب أن يوقف زحف دولة الأدارسة العلوية في المغرب، وأن يقي الدَّولَة العَبَّاسِيَّة شر غزوات البربر والإغارة على الأقاليم الشرقية للدَّولَة، وكانت هذه الدويلة تمثل الدويلات ذات العلاقة الاسمية بالدَّولَة العَبَّاسِيَّة بخلاف دولة الأدارسة التي كانت معادية للخلافة العَبَّاسِيَّة[١٠]. واستقل إبراهيم بالإقليم، وظل على علاقة طيبة بالخلافة العَبَّاسِيَّة، فهو يذكر اسم الخليفة في خُطبة الجمعة، ويضع اسمه على العملة، ويدفع الخراج المقرر عليه وهو أربعون ألف دينار[١١]، ويحتفظ متحف باردو بعينة من هذه الدنانير[١٢].

وقد حكم دولة الأغالبة بعده عشرة حُكَّام كان آخرهم زيادة الله الثَّالِث بن عبد الله ٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٣-٩٠٩م. وعاشت دولة الأغالبة زيادة على المائة سنة حققوا تقدماً في جميع الميادين، ومن أعظم إنجازات الأغالبة المعمارية تجديد مسجدي القيروان وتونس، وهما المعروفان بمسجد عقبة بن نافع ومسجد الزيتونة من قِبَل الأمير زيادة الله بن إبراهيم[١٣]، وقام أبو العباس محمد بن الأغلب ببناء جامع سوسة ورباطها المعروف بقصر الرِّبَاط[١٤].

أَمَّا المنشات المدنية وخاصة مدينة القصر القديم التي بناها إبراهيم بن الأغلب[١٥]، وتبعد ثلاثة كيلومترات جنوبي مدينة القيروان لتكون معسكراً لجنده ومقاماً له ومعقلاً لأسرته، كما كانت تسمى العَبَّاسِيَّة ثم سميت بالقصر القديم تميزاً لها عن مدينة القصر الجديد(رقادة) التي بناها إبراهيم ابن أحمد سنة٢٦٤هـ/٨٧٧م[١٦]. كما تطورت الحياة الاقتصادية انعكس أثره هذا على سُكَّان إفريقية فانتعشوا اقتصادياً ونتيجة إحكام الأغالبة على زمام البحرية دون منازع، احتكروا دور الوساطة التجارية بالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب وجنوا من وراء ذلك أطيب الثمار، كما راجت دور الصناعة مثل دور تونس وسوسة وغيرها مستفيدة من الاستقرار النسبي للبلاد، وأصبحت القيروان من أكبر المراكز التجارية في غرب البحر المتوسط.

٢- مكانة العُلَمَاء في دولة الأغالبة:

نال العُلَمَاء مكانة مرموقة في دولة الأغالبة[١٧]، وقد دللت معاملة حُكَّام الدَّولَة لهم على هذه المكانة فقد أولوهم الرِّعَاية والاحترام، وحرصوا على الذهاب إليهم ومجالستهم، وإجابة طلباتهم، وتوجيه الرسائل إليهم، كما أنهم حزنوا على موتهم أشد الحزن.

ومن ذلك أنه لَمَّا أَعلم القائد أبو فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب- قائد الجيش الذي أعاد مدينة تونس إلى دولة الأغالبة سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م- الأميرَ زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب كَيفِيَّة فتحه لتونس واستيلائه عليها، وقتله عَبَّاس بن الفارسي-[ت٢١٨هـ/٨٣٣م][١٨]- استعظم زيادة الله ذلك وأنكره وقال له: "ما حملك على ذلك، وما دعاك لقتله، وهو رجل صالح عالم"[١٩].

وكان زيادة الله يقول: "ما أبالي إن شاء الله ما قدمت عليه يوم القيامة وقد قَدَّمتُ أربعة قبل وفاتي"، قيل: "وما هي؟" قال: "بنائي المسجد الجامع بالقيروان أنفقت فيه ستة وثمانين ألف دينار، وبنائي القنطرة بباب أبي الرَّبِيع، وبنائي الحصن بسوسة[٢٠]، وتوليتي أحمد بن أبي مُحْرِز- [ت٢٢١هـ/٨٣٦م][٢١]- قضاء إفريقية"[٢٢].

أَمَّا عن زيارة الأمراء للعُلَمَاء فهي دليل على علو مكانتهم في المجتمع الأغلبي، وقد أرخت المصادر لبعض هذه الزيارات، منها على سبيل المثال: زيارة الأمير أحمد بن محمد الأغلب للفقيه دحيم الضرير المتعبد وطلب الدَّعَاء منه؛ لأنه كان من العُلَمَاء المشهور عنهم استجابة الدُّعَاء[٢٣]. ومنها أيضاً زيارات الأمير إبراهيم بن أحمد للفقيه أبو الأحوص [ت٢٨٤هـ/٨٩٧م][٢٤]بمدينة سوسة، وكان إن وجده يطحن قوته بيده جلس على التُّرَاب، وإن وجده فارغاً جلس على جلد المطحنة، لأنه لم يكن في بيته حصير ولا غيرها[٢٥].

وأجاب الأمير إبراهيم بن أحمد طلب أبو الأحوص في ثلاثة أشياء وهي أن يخرج المحبوسين من أهل تونس بالرغم من عظم ذنبهم عنده، والزيادة في الجامع لضيقه عن الناس، وإجراء ساقية من خارج المدينة إلى المآجل[٢٦]فأجابه[٢٧]. وكان ذلك الأمير نفسه يكتب إلى الفقيه أحمد بن معتب[ت٢٧٦هـ/٨٩٠م][٢٨]قائلاً: "يا أخي في الإسلام وشقيقي في المحبة"[٢٩].

كما حزن الأمراء الأغالبة على موت العُلَماء أشد الحزن، فلَمَّا توفي القاضي ابن غانم [ت١٩٠هـ/٨٠٦م] حزن عليه الأمير إبراهيم بن الأغلب وبكاه، وأقبل "مَعَد" خال إبراهيم- عامله على القيروان- يبكي وينتحب حتى فرغوا من دفنه(٣٠). وصلى الأمير عبد اللَّه بن إبراهيم بن الأغلب على الفقيهين محمد بن يَسُوتَا(٣١)ومعاوية بن الصُّمَادِحِي(٣٢)لَمَّا ماتا سنة ١٩٩هـ/٨١٤م(٣٣).

ولَمَّا توفي الفقيه أحمد بن أبي مُحْرِز[ت٢٢١هـ/٨٣٦م] أرسل الأمير زيادة الله بن إبراهيم "خلف الخادم" إلى عمران بن الفقيه باثني عشر ثوباً ومسك للكفن، ووجده قد كُفِّن فأفرغ المسك على الكفن، ثم حضر الأمير زيادة الله وصلى عليه وعزى ابنه عمران(٣٤). كذلك صلى الأمير محمد بن الأغلب على الفقيه سحنون التَّنُوخِيُّ[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م](٣٥)بعد أن أرسل إليه بحنوط(٣٦) وكفن(٣٧). كما صلى الأمير إبراهيم بن أحمد على الفقيه محمد بن سحنون[ت٢٥٥هـ/٨٦٨م](٣٨) لَمَّا توفي، وخرجت النَّاس لدفنه وغلقت الكتاتيب والحوانيت من أجله(٣٩).

كما تعدت المكانة العالية للعُلَمَاء إلى خارج حدود الدَّولَة حتى وصلت إلى بغداد مقر الخلافة العَبَّاسِيَّة، فقد ثبت أن الخليفة هارون الرَّشِيد[١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م] كان يكاتب القاضي ابن غانم[ت١٩٠هـ/٨٠٦م](٤٠)قائلاً: "من هارون أمير المؤمنين إلى قاضي إفريقية عبد الله بن عمر بن غانم"(٤١)، وكان إذا كتب كتاباً للأمير إبراهيم بن الأغلب يقول فيه: "وأنا أعلمك أني لا أفك لك كتاباً حتى يكون مع كتابك إلي كتاب ابن غانم"(٤٢). والرَّشِيد هو من عَيَّن ابن غانم على قضاء إفريقية في رجب١٧١هـ/ديسمبر٧٨٧م وهو ابن اثنين وأربعين سنة(٤٣).

وصفوة القول: أن علماء دولة الأغالبة تمتعوا بمكانة مرموقة، خاصة ما حازوه من العلم الشرعي، وما عرفوا به من الزُّهْد والورع، ولا جدال أن زهدهم وورعهم جعلهم محل تقدير واحترام بين الناس خصوصاً أولئك الذين عرفوا منهم باستجابة الدَّعْوَة، كالفقيه ابن غانم وسحنون وأبو الأحوص ودحيم الضرير، وكذلك ارتباطهم الشديد بأفراد مجتمعهم، وتوليتهم بعض الوظائف المهمة كالقضاء الذي يجعل صاحبه يقابل بالاحتفاء والتعظيم من قبل الناس. وهذا ما يتيح للمتولين له التأثير بقُوَّة في الحياة الاجتماعية، فكانت أحكامهم تجري على الصغير والكبير(٤٤)، حتى شكلوا سلطة ضاهت السلطة

السِّيَاسِيَّة أحياناً، الأمر الذي جعلهم أشد تأثيراً في نفوس أفراد الدَّولَة من تأثير ممثلي السلطة السِّيَاسِيَّة في كثير من الأوقات(٤٥)، وفيما يأتي بيان ذلك.

دور العُلَمَاء السِّيَاسِي في دولة الأغالبة:

ويتناول هذا العنوان دورهم في تثبيت دعائم حُكْم الأغالبة، وعلاقة العُلَمَاء بإدارات الدَّولَة السِّيَاسِية، ثم دورهم في أعمال الحرب والجهاد، والأحداث السِّيَاسِية والثورات وموقف العُلَمَاء منها.

أولاً: دور العُلَمَاء في تثبيت دعائم حُكْم الأغالبة:

كان للمذهب السُّنِّي وشيوخه نصيب كبير في إقامة وتثبيت دعائم هذا الاستقرار، فقد رفض العُلَمَاء دعوات الخروج على حُكْم الأغالبة، بل وقاوموا تلك الدعوات، كما سعوا في التقريب بين الثَّائرين والحُكَّام الأغالبة، وكانوا يدعون للأُمَرَاء الأغالبة ويذكروهم بأمر الرَّعِيَّة.

١- رفض العُلَمَاء دعوات الخروج على حُكْم الأغالبة:

من ذلك رفض الفقيه أسد بن الفرات[ت٢١٤هـ/٨٢٩م](٤٦)دعوة الثَّائر عمران بن مُجَالِد الرَّبَعِي[ت٢٠٠هـ/٨١٥م](٤٧)الذي ثار على مؤسس الدَّولَة الأمير إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩م، ثم استولى عمران على العاصمة القيروان في١٠رجب١٩٤هـ/١٩ أبريل٨١٠م(٤٨)، وكتب إلى الفقيه أسد بن الفرات أن يخرج معه، فأبى أسد بن الفرات وتمارض ولزم بيته، فبعث عمران إليه يقول له: "إمَّا أن تخرج وإلا بعثتُ من يجر برجلك" فقال أسد: "والله لئن أخرجتني لأنادين في النَّاس: القاتل والمقتول في النَّار" فتركه عند ذلك، وانتهت ثورة عمران بعد حروب دامت سنة، ثم هرب إلى الزَّاب وسأل الأمير إبراهيم الأمان فأمنه(٤٩).

٢- السعي في التقريب بين الثَّائرين والحُكَّام الأغالبة:

في إطار الدور السِّيَاسِي للعُلَمَاء في دولة الأغالبة، يأتي سعيهم للتقريب بين الأطراف المتنازعة سياسياً وعسكرياً، وهذا من أهم الجهود التي تذكر للعُلَمَاء على وجه العموم، ومن أكثرها نفعاً لما ينتج عنها من تجنب البلاد ويلات الحروب وإراقة الدِّمَاء وخراب العمران.

ومن ذلك سعى الفقيه يحيى بن سلام[ت٢٠٠هـ/٨١٥م][٥٠]بين عمران بن مُجَالِد الرَّبَعِي وبين الأمير عبد الله بن الأغلب، على أن يعطي الأمير لعمران الأمان على ماله ونفسه وولده، ولكن الأمير أمر بقتله، إذ أحكم الواشون الأمر وذكروه بخروجه على أبيه من قبل وزادوا من عندهم أشياء لم يحتملها الأمير، فلَمَّا قتله الأمير حزن الفقيه يحيى كثيراً وعزم على الخروج من البلاد وقال: "لا أسكن بلداً أُخْفِرَ فيه العهدُ على يدي"[٥١].

وشارك قاضي تونس شجرة بن عيسى[ت٢٦٢هـ/٨٧٦م][٥٢]مع أربعين شيخاً في تلبية دعوة القائد محمد بن حمزة في الذهاب إلى الثَّائر على الأمير زيادة الله بن إبراهيم الأغلب وهو منصور بن نُصَيْرٍ الطُّنْبُذِي في قصره بِطُنْبُذَة[٥٣]يوم الاثنين٥صفر٢٠٨هـ/١٩يونيو٨٢٣م، يقبحون خلافه ويأمرونه بالطَّاعَة، فلَمَّا اجتمعوا به، قال منصور: ما خالفت طاعة الأمير، وأنا سائر معكم إليه، ولكن أقيموا معي يومنا هذا حتى نعمل للقائد محمد ولمن معه ضيافة. فأقاموا عنده، وسَيَّر لمحمد غنماً وبقراً، وكتب إليه: إني صائر إليك مع القاضي والجماعة، فركن القائد محمد إلى ذلك وأمر بالغنم فذبحت وأكلوا وشربوا[٥٤]، ولكن سعي القاضي لم يأت بنتائج إيجابية، ففي مساء ذلك اليوم سجن منصورٌ القاضيَ ومن معه[٥٥].

وتلك المحاولات السَّابِقة هي عمل سياسي في المقام الأَوَّل، والدَّور الذي قام به الفقيه يحيى بن سلام والقاضي شجرة بن عيسى ما هو إلا دور الوسيط السِّيَاسِي بين الأطراف المتنازعة حفاظاً على وحدة الدَّولَة، ويماثله اليوم محاولات بعض العُلَمَاء والمثقفين إصدار بعض البيانات بعد توقيعهم عليها إزاء بعض الأمور السِّيَاسِيَّة.

٣- الدُّعَاء لهم وتذكيرهم بأمر الرَّعِيَّة:

كان علماء دولة الأغالبة بطانة جَيِّدَة للأُمَرَاء الأغالبة، يحثونهم على فعل الخير، ويرغبوهم في فعل المعروف وينهوهم عن المُنْكَر، بالتحدث إليهم مباشرة وبالكتابة إليهم، بحسن القول تارة وتغليظه تارة أخرى، لا يخشون في الله لومة لائم، وهي أمور تتعلق بتحسين السياسة الداخلية للدَّولَة، ومن الأمثلة على ذلك:

ثبت أن شاهد القاضي ابن غانم[ت١٩٠هـ/٨٠٦م] في يد الأمير إبراهيم بن الأغلب قارورة تبين أنها سم قاتل فأخذها من يد الأمير وكسرها وأراق ما فيها فانزعج الأمير فقال له القاضي: "أفأترك معك ما يقتل النَّاس"(٥٦)، فترك إبراهيم القاضي يوبخه وهو صامتاً(٥٧). وكتب الفقيه سحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م] إلى الأمير محمد بن الأغلب: أعاذك اللَّه أيُّها الأمير من قسوة التَّجَبر، ونخوة التَّكبر، وأسأله أن يرزقك فهماً للخير وعملاً به، ومعرفة بالحق وأثره له(٥٨). وكان الفقيه أبو الرَّبِيع اللِّحْيَانِي(٥٩)يدخل على محمد بن الأغلب وهو يومئذٍ الأمير فيكلمه ويعظه(٦٠).

وكتب الفقيه محمد بن سحنون موعظة إلى أحد أمراء بني الأغلب ذَكَّره فيها بتقوى الله وطاعته، والنَّظَر إلى نفسه وميعاده الذي يصير إليه، والعمل للآخرة لا للدنيا، وذَكَّره بالموت وبيوم القيامة، وأن يعمل على نشر العدل بين النَّاس، كما ذَكَّره أن انتصاراته على عدوه إنما هي بفضل الله- عز وجل- وأن يتمهل في أمره، وأن يؤثر الله- عز وجل- عند الغضب(٦١).

وذهب الفقيه عبد الجبار السرتي[ت٢٨١هـ/٨٩٤م](٦٢)مع جماعة من علماء القيروان إلى الأمير إبراهيم بن أحمد لتهنئة بطهور أولاده، وكان احتفالاً عظيماً فيه ألوان كثيرة من الأطعمة، وقد لاحظ الفقيه أن جميع المدعوين من الأغنياء، فذَكَّر الفقيهَ الأميرُ بالفقراء، فدعا الأمير بكيس فيه خمسمائة دينار ودفعه إلى الفقيه وسأله أن يفرقه على الفقراء والمساكين، ثم التفت الأمير إلى كاتبه رجاء بن محمد وقال له: يا رجاء رأيت ما أعقله وما أظرفه، أتعرف في رعيتي مثله؟ إنه قضى ذممنا وتعافى من مطعمنا وأخرج مالنا فيما يرضينا(٦٣).

ودخل كل من الأمير إبراهيم بن أحمد والقاضي عبد الله بن أحمد بن طالب[ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م](٦٤)إلى بستان، فناول الأمير القاضي بعض ثمره، فقال: أيُّها الأمير يجب لله عليك شكران أن بلغك غرسه ثم أكلت ثمرته، فقال: وما هذا الشكر؟ قال: أن تصلي ركعتين، ثم تبعث بصدقة إلى أهل الدمنة- موضع سكنى المجذومين- ثم تعزل من عمالك من كان جائراً وتجعل مكانه من يعدل في الرعية، ففعل الأمير كل ما طلبه القاضي(٦٥).

كما شهد قُضاة القيروان وفقهاؤها مع مشايخ بني الأغلب سنة٢٦١هـ/٨٧٥م عقد بيعة أبي الغرانيق[٦٦]محمد بن أحمد لابنه أبي عقال الأغلب بولاية العهد واستحلاف أخيه إبراهيم بن أحمد بن محمد خمسين يميناً بجامع مدينة القيروان ألا ينازعه[٦٧].

ويبدو أن مشاركة قُضاة القيروان وفقهائها السَّابِقة كانت بطلب من أبي الغرانيق؛ لأنه كان يعتقد الخلاف من إبراهيم بدليل استحلافه خمسين يميناً بجامع القيروان ألا ينازع أخاه أبو عقال في ولاية العهد، فأراد أن يتوثق بشهود قُضاة القيروان وفقهائها، وتُبَيِّن أيضاً المكانة الرفيعة التي وصل إليها علماء وفقهاء دولة الأغالبة حتى يشهدوهم على بيعة العهد تلك.

وصفوة القول: أنه كان للعُلَمَاء في دولة الأغالبة دور كبير لاسيما في الجانب السِّيَاسِي. فقد عملوا على تثبيت حُكْم الأغالبة، من خلال رفضهم دعوات الخروج على الحُكَّام الأغالبة، ويتضح ذلك من موقف الفقيه أسد بن الفرات[ت٢١٤هـ/٨٢٩م]، حيث رفض دعوة الثَّائر عمران ابن مُجَالِد[ت٢٠٠هـ/٨١٥م] الذي ثار على الأمير إبراهيم بن الأغلب. كما سعوا جاهدين للتقريب بين الحُكَّام الأغالبة ومن يثور عليهم، كمشاركة قاضي تونس مع أربعين شيخاً في إقناع الثَّائر منصور بن نُصَيْرٍ الطُّنْبُذِي بالعدول عن ثورته ضد الأمير زيادة الله بن إبراهيم الأغلب.

ثانياً: علاقة العُلَمَاء بإدارات الدَّولَة:

مواقف العُلَمَاء من الأُمَرَاء الأغالبة، ومواقفهم من الولاة وأصحاب النفوذ السِّيَاسِي:

أ- مواقف العُلَمَاء من الأُمَرَاء الأغالبة:

من خلال موقفهم من هبات الأُمَرَاء قبولاً ورفضاً، وجرأتهم على الأُمَرَاء الأغالبة:

١- موقف العُلَمَاء من هبات الأُمَرَاء وعطاياهم:

تباينت مواقف العُلَمَاء من قبول هبات أمراء الدَّولَة، فمنهم من رفضها رفضاً قاطعاً ومنهم من قبلها، وقد أفصحت المصادر عن أسباب الرَّفْض أو القبول، فمن أمثلة الرَّفْض:

رفض الفقيه زكريا بن محمد اللخمي[٦٨]أخذ أي شيء من جراب مال أُحضر من قسطيلية[٦٩]فيه دنانير وحُلِي أفرغه الأمير زيادة الله بن إبراهيم في مجلس أمام عدد من العُلَمَاء

منهم زكريا وأسد بن الفرات وأبو محرز[ت٢١٤هـ/٨٢٩م][٧٠]ثم قال الأمير: والله ما أعطى هذا أهله وهم طائعون، وقرب نهاية المجلس أعطى الأمير كل فقيه من الحاضرين بعضاً من الأموال التي كانت في الجراب إلا الفقيه زكريا فإنه قال له: أنت تخبرنا إنما أعطوه غير طائعين فكيف نأخذه، فقال الأمير: "لله درك يا ابن الحكم"[٧١].

وأرسل الأمير إبراهيم بن الأغلب إلى الفقيه عبد الخالق المتعبد[ت٢١٠هـ/٨٢٥م][٧٢]، فلَمَّا حضر قال له الأمير: بلغني أنك من العرب وأن لك عيالاً، فخذ هذه المائة دينار، فقال له: أنا عنها غني، فقال الأمير: زيدوه مائة أخرى، فقال الفقيه: لو كان لي حاجة لكان في المائة كفاية، فلم يزل يقول زيدوه والفقيه يكلمه بالكلام الأَوَّل حتى بلغ خمسمائة دينار، ولم يقبلها[٧٣].

وقال الفقيه أبو سليمان لسحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م]: كيف يسعك في دينك أن تدع الطلبة، وحاجتهم إليك وتخرج إلى البادية فتقيم بها الشهور الكثيرة؟ فقال: يا أبا سليمان تريد أن ترى كتبي في هذا الغدير؟- وأشار إلى ماء بين يديه- فقال له: وكيف ذلك؟ قال: أحتاج إلى دراهم هؤلاء القوم- يريد الملوك- فآخذها، فإذا أخذتها فارموا كتبي في هذا الغدير[٧٤]. وقال سحنون: فو الله لقد ابتليت بهذا القضاء وبهم- يقصد الأُمَرَاء الأغالبة- فو الله ما أكلت لهم لقمة، ولا شربت لهم جرعة، ولا لبست لهم ثوباً، ولا ركبت لهم دابة، ولا أخذت لهم صلة[٧٥].

ويتبين من خلال الأمثلة السَّابِقة أن العُلَمَاء رفضوا تلك الهبات لعِدَّة أمور: منها خشية أن يكون فيها شبة حرام كما في المثال الأول والثالث وهو موقف الفقيه زكريا بن محمد اللخمي والقاضي سحنون، أو من باب الزُّهْد والورع كما في حالة الفقيه عبد الخالق المتعبد. كما تظهر تلك الأمثلة حرص الأُمَرَاء الأغالبة على وصل علماء الدَّولَة وفقهائها بالهدايا لمحبتهم فيهم، أو إشفاقاً عليهم لقلة ما بأيديهم من الأموال ولكثرة عيالهم والتزاماتهم.

وعلى الجانب الآخر كان هناك بعض العُلَمَاء يقبلون هدايا الأمراء بل يسألونهم إياها، فمن ذلك أن إسحاق بن عبد الملك الملشوني[٧٦]جلس عند الأمير محمد بن الأغلب طوال شهر رمضان يقص عليه قصصاً عن الأنبياء- عليهم السَّلام- وعن الأمم السَّالِفَة، وبعد انقضاء الشَّهْر قال في

نفسه: حضرت مجلس الأمير ثلاثين يوماً فلم أذكر الدَّين الذي علي ولا الفقر الذي أنا فيه، وقبل انصرافه تحدث إسحاق للأمير عن دينه وفقره، فقال له الأمير: كم عليك من الدَّين، فقال: خمسون ومائة دينار فأمر له بها في الحال، ثم سأله قمحاً وشعيراً وزيتاً وحطباً، فأمر الأمير بها وهي كفاية عام كامل، وكانت خمسين قفيزاً من القمح، ومثلها من الشَّعِير، وثلاثمائة قفيز من الزَّيت، وعشرة أحمال من الحطب، ثم أخذ كل ذلك وانصرف(٧٧).

٢- جرأتهم على الأُمَرَاء الأغالبة:

من الصِّفات النَّادرة في العُلَمَاء، والتي لا يوسم بها إلا المتميزون منهم، عدم الرَّهْبَة من الحُكَّام والأُمَرَاء، وأن تقتصر الرَّهْبَة عندهم على الله- عز وجل- ولا يخافون من سواه. ومن هنا نجد هذه الصِّفَة النَّادِرة يوسم بها عُلَمَاء دولة الأغالبة أو بعضهم على الأقل.

ومن ذلك أن الفقيه عبد الخالق المتعبد[ت٢١٠هـ/٨٢٥م] كان قليل الهيبة للملوك(٧٨)، فبعد أن رفض المال الذي عرضه الأمير إبراهيم بن الأغلب له والمذكور سابقاً، قال له الأمير: أفسدكم البربري- يقصد الفقيه بهلول بن راشد[ت١٨٣هـ/٧٩٩م](٧٩)- والله لو أدركته لجعلته يرقص خلفي، فقال عبد الخالق: والله لو أدركته لكنت أهون عليه من هذا الطِّين الذي يعجن بين يدك، وكان بين يدي الأمير إبراهيم طين يعجن لمَرَمَّةٍ(٨٠).

ودخل الفقيه إسماعيل بن رَبَاح الجزري[ت٢١٢هـ/٨٢٧م](٨١)على الأمير عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب فقال له: ما اسمك؟ فقال: وأنت أيضاً ما اسمك؟ فقال الأمير: اسمي عبد الله، فقال: وأنا اسمي إسماعيل، فقال له الأمير: اقرأ علي، فقال الفقيه: لا سبيل إلى ذلك، فقال: ولم؟ فقال: بلغني عن النَّبِي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "من قرأ على إمام جائر لعن بكل حرف عشر لعنات"(٨٢)، فقال الأمير: أو لا تسألني شيئاً؟ قال: وما تملك فأسألك؟ ثم خرج من عنده(٨٣).

ولَمَّا تولى الفقيه أحمد بن أبي مُحْرِز[ت٢٢١هـ/٨٣٦م] القضاء اشترط على الأمير زيادة الله بن إبراهيم ألا يقبل من أحد من أقاربه أو حشمه أو من يلوذ به وكيلاً(٨٤). ووافق الفقيه سحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م] أن يلي القضاء بعد أن حلف له الأمير محمد بن أبي الأغلب بالأيمان

المؤكدة أن يطلق يده على أهل بيته وخدمه وحشمه وينفذ عليهم الحق أحبوا أو كرهوا(٨٥). وقال سحنون في الأُمَرَاء الأغالبة بعد أن تولى القضاء: وإني لأدخل عليهم فأكلمهم بالتشديد، وبما عليه العمل وفيه النجاة، ثم أخرج من عندهم فأنظر في أمري فأجد علي الدرك، مع ما ألقاهم به من الشِّدَّة وكثرة مخالفتي لهم ووعظي لهم، فوددت أني أنجو مما دخلت فيه كفافاً لا علي ولا لي(٨٦).

وروي أن الأمير محمد بن الأغلب طلب الفقيه مروان المُسْلِي[ت٢٤٠هـ/٨٥٥م](٨٧)في أمر مُهم، فوافى قبل دخوله خصياً بيده عود، فأخذه الفقيه منه بعنف فكسره، فدخل الخصي إلى الأمير، فقال له: إن شيخاً بالباب قد كسر من يدي كذا وكذا، وخرق الخصي ثيابه، فَلَمَّا دخل الفقيه عاتبه الأمير فيما صنع، فقال له: نعم رأيت منكراً فغيرته، فلم يراجعه الأمير(٨٨).

وذُكِر أن الأمير زيادة الله بن إبراهيم خرج من جامع القيروان وأراد زيارة الرَّجُل الصَّالِح أبي محمد الأنصاري[ت٢٥٠هـ/٨٦٤م](٨٩)والأمير في حشمة وأبهة، ثم قال لخلف ومسرور الخادمين: أدخلا وقولا له: إمامك بالباب يريد الدُّخُول والسَّلام عليك، فقال أبو محمد: قولا له: ينصرف فما له عندي حاجة ولا لي عنده حاجة، فاغتاظ الأمير غيظاً عظيماً وقال لهما: ادخلا إليه وأخرجاه شاء أو أبى، فحمله قوم من أصحابه حتى وقفوا به إليه فقال له الأمير: يا هذا أتيناك لتأمرنا بمعروف فنفعله وتنهانا عن منكر فننزجر عنه فحجبتني عن نفسك وأنا إمامك، فانتهره أبو محمد وقال له: جرأك علي عُلَمَاء السُّوء الذين يغرونك ويزينون لك زخارف الدُّنْيَا وغرورها، ولو علمت بما علمت أنبأتك بما جهلت، اذهب عني لئلا أشتكيك إلى اللهY، فقال: صدقت، ثم انصرف الأمير عنه، وأرسل إليه بصدقة فلم يقبلها(٩٠).

وروي أن الأمير إبراهيم بن أحمد تَعَسَّف النَّاس، فكتب الفقيه أبو الأحوص[ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م] إليه رقعة أغلظ له فيها، وقيل إنه كتب: "إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ"(٩١)، فلما وصلت إلى إبراهيم أتاه ليلاً وقال له: "أحب أن ترفع إلي كلما ثبت عندك من مثل هذا فأغيره"(٩٢).

وقد غاير المؤرخ ابن عِذَارِى[ت نحو٦٩٥هـ/١٢٩٥م] هذه الرواية وساقها في قالب درامي، فذكر: أنه لَمَّا أكثر الأمير إبراهيم بن أحمد الجور والقتل، دعا الفقيه أبو الأحوص برجل من لأهل

سوسة، وأملى عليه رسالة إلى الأمير، كان في فصل منها: "يا فاسق! يا جائر! يا خائن! قد حدت عن شرائع الإسلام! وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم، وسترد فتعلم"! وبعث به إليه فلما قرأه، غضب وبعث إلى أبي الأحوص من قال له: عذرناك لفضلك ودينك! ولكن ابعث إلي الذي كتب الكتاب، وبالله لئن لم تفعل لأقتلن فيه من أهل سوسة كذا وكذا، ويكون إثم ذلك في عنقك! فقال أبو الأحوص للرَّسُول: قال له لئن قتلت ألفاً لا يكون إثمهم إلا عليك! ولو عملت ما عملت ما أعلمتك بالرجل، فتب إلى خالقك، وأرجع عن جورك! فأمسكه الله عنه(٩٣).

وعرف عن القاضي حماس بن مروان[٣٠٣هـ/٩١٥م](٩٤)أنه كان لا يهاب سلطاناً ولا أحداً في ولايته ونظره(٩٥). كما كان أبو يونس المتعبد[٣٠٤هـ/٩١٦م](٩٦)قليل الهيبة للسُّلْطَان(٩٧).

ومن خلال ما سبق يتضح أنه كان لبعض عُلَمَاء دولة الأغالبة شخصية مستقلة، معتزين بأنفسهم، غيورين على شيوخهم وقضائهم ودينهم، لا يأخذهم في الحق لومة لائم لخوفهم من الله– عز وجل– فلم ترهبهم أبهة السُّلْطَان، فاعتزازهم بأنفسهم وبشرف علمهم الذي يحملونه جعل الفقيه إسماعيل الجزري يبادر بسؤال الأمير عبد الله بن إبراهيم: وأنت أيضاً ما اسمك؟ حينما سأله الأمير عن اسمه، إذ يبدو أنه شعر بالانتقاص من كون أحد لا يعرفه حتى ولو كان أمير الدَّولَة، أَمَّا غيرتهم على شيوخهم فكان واضحاً من خلال رد الفقيه عبد الخالق على الأمير إبراهيم بن الأغلب حينما انتقص من حق شيخه بهلول بن راشد، وأَمَّا غيرتهم على القضاء فهذا واضح من موقف الفقيه أحمد بن أبي مُحْرِز والفقيه سحنون، وغيرتهم على دينهم كان ظاهراً من خلال تصرف الفقيه مروان المُسْلِي مع الخصي وتكسيره لآلة الطرب.

ب– مواقف العُلَمَاء من الولاة وأصحاب النُّفُوذ السِّيَاسِي:

شهدت علاقة الولاة بالعُلَمَاء أواصر طيبة في كثير من الأحوال، ولعل ذلك كان من جملة سياسات حَرَصَ عليها أمراء دولة الأغالبة، إذ قد ثبت أنهم كانوا يوصون الولاة باحترام العُلَمَاء والتقرب إليهم، وربما كان ذلك واضحاً في كثرة إكرام وتعظيم الأمير إبراهيم بن الأغلب للقاضي عبد الله بن غانم[ت١٩٠هـ/٨٠٦م](٩٨)، وكذلك توليتهم للوظائف المؤثرة فقد فوض الأمير إبراهيم بن

أحمد إلى القاضي عبد الله بن أحمد بن طالب[ت٢٧٥هـ/٨٨٨م] النَّظَر في الولاة والجباة والحدود والقصاص والعزل والولاية، فقطع المنكر من القيروان[٩٩]. وعندما تفاقم أمر الخلاف بين القاضي سليمان بن عمران[ت٢٧٠هـ/٨٨٣م][١٠٠]وبين الفقيه محمد بن سحنون [ت٢٥٥هـ/٨٦٨م]؛ بسبب كراهية القاضي للفقيه سحنون– والد محمد– توارى ابن سحنون خوفاً على نفسه، وكتب إلى الأمير محمد بن الأغلب بيت عثمان رضي الله عنه:

فإن كنتُ مأكولاً فكن أنتَ آكلي وإلا تَدَارَكْنِي ولَمَّا أُمَزَّق

فقال ابن الأغلب: ومن يمزقه؟ مزق الله جلده، ثم رفع يد سليمان عنه وأمنه، وروي أنه لما طال توارى ابن سحنون، رأى أن يلجأ إلى الأمير، فركب متنكراً إلى القصر، ولقيه مؤدب– كان يؤدب أولاد ابن الأغلب– فسأله ابن سحنون أن يدخل على الأمير يستأذن له في الخروج عن القيروان، فقال الأمير للمؤدب: ما ترى فيما سأل؟ قال: تأذن له في الخروج، فقال له: أَنَّى لك العقلُ وأنت باللَّيل مع النِّسَاء وبالنَّهَار مع الأطفال، وإذا أذنت لابن سحنون في الخروج مع مَنْ أبقى؟ معك ومع صنفك؟! فأخبره: أني قد أمنته ورفعت يد سليمان عنه[١٠١].

وأرسل الأمير أبو العَبّاس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد إلى القاضي محمد الصَّدَنِي [ت٣٠٤هـ/٩١٦م][١٠٢]يخبره[١٠٣]: مد يدك إلى من تحب واحذر جبلة[ت٢٩٩هـ/٩١١م][١٠٤].

ولَمَّا تولى الأمير أبو الأغلب جزيرة صقلية سنة٢٢٠هـ/٨٣٤م[١٠٥]– من قبل عمه الأمير زيادة الله بن إبراهيم– أراد أن يأخذ معه إليها عبد الملك بن قطن المهري[ت٢٥٣هـ/٨٦٧م][١٠٦] فاعتذر وقال: لا أقدر على ركوب البحر، فقال له: أردت غناك، وأراد الله بك خلاف ذلك، ارفع المنديل الذي بين أيدينا، فرفعه فإذا بدنانير كثيرة، قال: اختر منها مائة دينار وانصرف، ففعل[١٠٧].

وكان الوزير علي بن حميد يجل الفقيه محمد بن سحنون ويعظمه[١٠٨]. وثبت أن أرسل أبو الفضل أحمد بن علي بن حميد– وكان أخوه من وزراء دولة الأغالبة– إلى عبد الملك بن قطن المهري بنحو عشرين بغلاً، ومعها رجل راكب؛ فلما رأى المهري نزل ثم قال: يقرأ مولاي عليك السَّلام، وقد

وجه بهذه الدَّوَاب، وهي محملة طعاماً وعسلاً وخلاً وزيتاً، وبهذه العشرين ديناراً، فقبضها منه تكرها ثم دمع وقال: ذهب الناس، إنا لله وإنا إليه راجعون، ابن حميد يوجّه إليّ بهذا؟! قال حمدون النَّحْوِي[ت بعد٢٠٠هـ/٨١٥م][١٠٩]- وكان حاضراً- أحمد الله وأشكره فأن هذا كثير، فنظر عبد الملك إليه وهو مغضب ثم قال: هو كثير لك ولأمثالك، فأما لي فلا[١١٠].

وأراد أحد أفراد أسرة الأغالبة وهو القائد إبراهيم بن حبشي الأغلبي[١١١]أن يجبر خاطر المقرئ محمد بن خيرون[٣٠٥هـ/٩١٨م][١١٢]لما غرقت له في البحر تجارة قدرت بنحو ألفي دينار، فذهب واجتمع معه وذكر اغتمامه لما أصابه وأخرج له كيساً فيه ألف دينار وألح كثيراً على المقرئ أن يأخذها ولكنه رفض[١١٣].

غير أن هذه العلاقة قد شابها بعض التوتر أحياناً وربما كان هذا التوتر ناتجاً عن تعسف بعض الولاة على بعض العُلَمَاء، ومن ناحية أخرى فقد وقف بعض العُلَمَاء في وجه الولاة الذين دأبوا على فعل المنكرات، فقد أنهى القاضي عبد الله بن غانم[ت١٩٠هـ/٨٠٦م] مجلس حكمه لَمَّا رفعت إليه قصة نخاسي البغال الذين أثبتوا أن أبا هارون موسى- مولى الأمير إبراهيم بن الأغلب وصاحب أمره- قد اشترى منهم بغالاً بخمسمائة دينار ولم يوف لهم قيمتها، فقام القاضي حتى دخل على الأمير وأخبره بالأمر، فاستدعى الأمير موسى فسأله عن قول القاضي فأقر به، وقال: إنما أخرته ليجيء خراج قسطيلية فإذا جاء دفعت إليهم، فقال القاضي: "إنما ظننت أنه يجحد فأوقفه معهم موقف الخصوم، فأما إذ أقر فإني لا أبرح حتى تدفع إليهم أموالهم"[١١٤].

وهذا الفقيه إسماعيل بن رَبَاح الجزري[ت٢١٢هـ/٨٢٧م] لم يرض بما فعله والي جزيرة شريك[١١٥]فضل بن أبي العَنْبَر[١١٦]من امتهان بعض أعوانه لمسجد من مساجد حصون الجزيرة، فقد روي أن فضل قال: قدمت بأعواني فنزلوا بعض حصون الجزيرة، فأدخلوا كلاباً وطيوراً كانت معهم في مسجد من مساجد الحصن، فَلَمَّا رآني إسماعيل، جاء إلي فقال: يا هذا أما ترى ما صنع أعوانك في بيت من بيوت الله؟ فصحت عليهم وأخرجتهم بالزَّجر، قال: فنظر إلي ساعة، ثم قال لي: حقن الله دمك، قال: فشهد فضل مشاهد كثيرة، فكان يقول: والله، لو حملتموني على الأسِنَّة ما أهرقت لي

محجمة دم، لأن دعوة الرَّجُل الصَّالِح بَرَّدت علي قلبي، قال أبي: فمات سوياً على فراشه لم يجرح جرحاً حتى مات(١١٧).

وروي أن رجلاً من أهل القيروان تخاصم مع رجل كان من خَاصة علي بن حميد– وكان ابن حميد من دولة الأغالبة بمحل الوزارة وكان بنو الأغالبة يدعونه العم– على دار من دور القيروان، فأتى الرَّجُل إلى القاضي أحمد بن أبي مُحْرِز[ت٢٢١هـ/٨٣٦م] فحجز القاضي الدَّار حتى يفصل فيها ووضع عليها ختمه، فذهب الرَّجُل الثَّانِي إلى علي وأخبره بالأمر، فتقدم علي وحل الطَّابِع، ففزع الرَّجُل الأَوَّل إلى القاضي الذي غضب وأخذ سجل القضاء وذهب إلى القصر القديم(١١٨)يريد الأمير زيادة الله، فقال له الأمير: لا تغضب، ثم تقدما إلى موضع الدَّار وختمها بختمه، وقال: إنا نرضيك يا قاضي، ثم وبخ علي بن حميد وأغلظ له في الكلام(١١٩).

ومن خلال ما سبق يتضح أن علاقة العُلَمَاء بالولاة وأصحاب النُّفُوذ السِّيَاسِي كانت طيبة غالباً، جاء في إطارها تولي بعض العُلَمَاء مراكز مُهِمَّة في الدَّولَة، كالقاضي عبد الله بن أحمد بن طالب[ت٢٧٥هـ/٨٨٨م]. وحرص الأُمَرَاء الأغالبة على رعاية العُلَمَاء ورفع الظُّلْم عنهم، ويتجلى ذلك في موقف الأمير محمد بن الأغلب مع الفقيه محمد بن سحنون[ت٢٥٥هـ/٨٦٨م]، كما ثبت أن الولاة الأغالبة كانوا يهتمون بالعُلَمَاء ويجزلون لهم العطاء، ولنا في موقف الأمير أبو الأغلب وأبو الفضل أحمد بن علي بن حميد مع عبد الملك بن قطن المهري خير مثال على ذلك.

ثالثاً: الأحداث السِّيَاسِيَّة والثَّوَرات وموقف العُلَمَاء منها:

تباينت آراء علماء دولة الأغالبة في حُكْم الخروج على الحاكم، فمنهم من كان يعد الخروج عليه من الأمور العظام وإن جار، ومنهم من كان يوجب الخروج إن أحدث بدعة.

فمن أصحاب الرَّأْي الأَوَّل الفقيه سحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م]، فقد روي أنه عاد الفقيه ابن القصار في مرض موته، وكان قد أصابه قلق، فقال له: ألست مصدقاً بالرسل أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجَّنَة والنَّار، ولا تخرج على الأئمة بالسَّيف وإن جاروا، قال: أي والله الذي لا إله إلا هو، فقال سحنون له: مت إذا شئت مت إذا شئت(١٢٠).

وعندما ثار منصور الطُّنْبُذِي وجماعة الجُنْد على الأمير زيادة الله بن إبراهيم وتَمَكَّن منصور من القيروان، دخل عليه كل من أبي مُحْرِز[ت٢١٤هـ/٨٢٩م] وأسد بن الفرات [ت٢١٤هـ/٨٢٩م] فقال لهما منصور: "أخرجا معنا، أما تعلمان أن هذا البائس– يقصد زيادة الله– ظلم المسلمين" فأما أبو مُحْرِز فإنه خاف من منصور وقال: "نعم وظلم اليهود والنَّصَارَى"، وأَمَّا أسد فقال لهم: "قد كنتم أعواناً له قبل هذا الوقت، وأنتم وهو على مثل هذا الحال، وكما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فكذلك يسعنا الوقوف عنه وحده"(١٢١).

أَمَّا أصحاب الرَّأْي الثَّانِي فعلى رأسهم الفقيه حَمْدِيس القطان[ت٢٨٩هـ/٩٠٢م](١٢٢)إذ قيل له: لو أن إماماً عمل بالمعصية أكنت تأمره أو تنهاه؟ فقال: لا، واحتج بالحديث: "ينبغي للمؤمن ألا يذل نفسه" قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يعرضها من البلاء ما لا طاقة لها به"(١٢٣)، وقيل لحَمْدِيس: فلو أن إماماً دعا إلى بدعة وأمر بها وبات بالدَّار؟ قال: نجاهده(١٢٤).

أَمَّا إذ اندلعت الثَّوَرَات وعَمَّت الفتن فإن العُلَمَاء كانوا يفضلون عدم الخروج للقتال حتى تنجلي الفتنة، ويتجلى ذلك في موقف الفقيه محمد السوسي[ت٢٩٣هـ/٩٠٥م](١٢٥)حينما أتى الأمير إبراهيم بن أحمد إلى سوسة وقد بلغه عن أهلها أذى، فأراد الأمير أن يهدم سورها ويعذب أهلها، فوصل إلى سوسة باللَّيل فأتى إلى الدمنة فنزل في مسجدها، وخرج إليه الفقيه فأخبره الأميرُ سبب مجيئه، فقال له الفقيه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(١٢٦)فبكى الأمير بكاءً عظيماً ثم قال: والله لا فعلت شيئاً مما كنت اعتقدت، وركب راجعاً إلى القيروان(١٢٧).

أَمَّا إذا قُوتلوا ففي هذه الحالة يخرجون للقتال، وهذا ما فعله المحدث عَبَّاس الفارسي [ت٢١٨هـ/٨٣٣م] الذي استشهد بمدينة تونس لما دخلها جيش الأمير زيادة الله بن إبراهيم ليقضي على فَضْل بن أبي العَنْبَر الذي تحصن بتونس، وأراد زيادة الله استباحتها وقتل أهلها وسبيهم، فجلس عَبَّاس في داره ولم يقاتل حتى دخلوا عليه في داره، فخرج بسيفه وهو يقول: "الجهاد الجهاد" فقتل وقطعت رأسه، كما قتل معه الفقيه موسى السبخي(١٢٨).

كما هب العُلَمَاء في أعقاب ثورات الرَّعِيَّة لكشف الظُّلْم الواقع عليهم من قبل الحُكَّام، بالدُّعَاء تارة وبالذهاب إلى الحُكَّام تارة أخرى لرفع الظُّلْم عنهم، فقد منع أهل العلم والدِّين الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في[١٥جُمادى الثانية٢٠٨هـ/٢٥ أكتوبر٨٢٣م] من أن ينتقم من أهل القيروان لوقوفهم مع منصور الطُّنْبُذِي وكذلك مساعدتهم من قبل الثَّائِر عمران بن مجالد [ت٢٠٠هـ/٨١٥م]، فكف عنهم واكتفى بتخريب سور القيروان(١٢٩).

وكان الأمير أبو العَبَّاس عبد الله بن إبراهيم سيء السِّيرة حتى مع أهله وأخيه زيادة الله، وأساء معاملتهم، واشتط في جمع الضرائب من أهل جزيرة شريك، فقيل: إنه جعل على كل زوج يحرث من البقر أو الثيران ثمانية دنانير(١٣٠)، وقيل: حدد على كل فدان ثمانية عشر ديناراً في كل سنة(١٣١)، وقيل: إنه قَطَع العُشُر(١٣٢)حَبَّاً، وجعل على القفيز(١٣٣)ثمانية دنانير(١٣٤)، ولعل القول الأَوَّل هو الأرجح لأسبقية إذ رواه المالكي المتوفى بعد سنة474هـ/ ١٠٨٢م، أَمَّا صاحب الرَّأْي الثَّانِي فقد توفي متأخراً وهو ابن الأثير[ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م]، وكذلك صاحب الرَّأْي الثَّالِث وهو ابن عِذَارِي المراكشي[ت نحو٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م].

فضاق النَّاس لذلك وشكا بعضهم إلى بعض، فَتَقَدَّم إليه رجل من الصَّالِحِين اسمه حَفْص ابن عُمَر الجَزَرِي(١٣٥)مع جمهرة من الصَّالِحِين، فنهوه عن ذلك ووعظوه، وَخَوَّفُوه العذاب في الآخرة، وسوء الذِّكر في الدُّنيا وزوال النِّعمة، فلم يجبهم الأمير إلى ما طلبوا، فخرجوا من عنده إلى القيروان، فقال لهم حَفْص: لو أننا نتوضأ للصَّلاة ونصلي، ونسأل الله أن يُخَفِّف عن النَّاس؟ ففعلوا ذلك، فما لبث أبو العَبَّاس إلا خمسة أَيَّام ثم خرجت له قرحة عظيمة تحت أذنه مات منها في اليوم السَّابِع من دعائهم عليه في[٦ذي الحِجَّة٢٠١هـ/٢٥يونيو٨١٧م](١٣٦).

وشارك الفقيه إبراهيم بن المضاء الضرير[ت٢٥٠هـ/٨٦٤م](١٣٧)في تظاهرة نظمها رجلٌ أتى إلى مسجد الخميس فقال لمن به من الحاضرين: "هبوا إلى دعوةٍ على الوزير عامر بن عمرون بن زرارة، فإنه بنى عِلِّيَّة وفتح فيها طِيقاناً مطلة مشوفة على بناتي وهن منكشفات، فدعا الفقيه ثم أمن

النَّاس على دعائه"، فما كان بأقرب من أن جاء رجل فقال: "إن الوزير قد انهدمت داره وضربته سارية فطيرت دماغه"(١٣٨).

وتجمع المرابطون(١٣٩)بقصر زياد يشكون من رجل من بني ناقد، كان له ناحية من السُّلْطَان، وكان له فرس يطلقه في زرع المرابطين فخوطب في ذلك فلم يقبل، ولا سأل عن كلام من خاطبه، فأتوا إلى الفقيه عبد الرحيم المستجاب[ت٢٤٧هـ/٨٦١م]- الذي بنى قصر زياد- فذكروا له ذلك، فرفع عينيه إلى السَّمَاء وقال: "اللَّهم اجعله آية للعالمين واكف المسلمين شره"، فطارت عينا الفرس وبقي أعمى وكفى المرابطين شره(١٤٠).

وخرج الفقيه أحمد بن مغيث(١٤١)إلى الأمير إبراهيم بن أحمد ودار بينهما كلام كثير في أعقاب ثورة الدَّرَاهِم، وكان محور الكلام يدور حول فكرة ضرب الدَّرَاهِم الصحاح وقطع ما كان يتعامل به من القِطَع(١٤٢).

وثورة الدَّرَاهِم كانت ضد الأمير إبراهيم بن أحمد الذي ضرب الدَّرَاهِم الصحاح، وقطع ما كان يتعامل به، فأنكرت ذلك العَامَّة وغلقوا الحوانيت، وصاروا إلى رقادة، وصاحوا على الأمير، فحبسهم في الجامع، وعلم ذلك أهل القيروان فخرجوا إلى الباب، فوجه إليهم الأمير وزيره أبا عبد الله بن أبي إسحاق فرموه بالحجارة وسبوه، فانصرف إلى الأمير الذي ركب إلى القيروان ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة[ت٢٧٧هـ/٨٩٠م](١٤٣)في جماعة من الجُنْد، فناصبه أهل القيروان القتال، فتقدم الأمير إلى المصلى فنزل وجلس وكف أصحابه عن قتاله، فلَمَّا اطمأن به مجلسه وهدأ النَّاس، خرج إليه الفقيه أحمد، ودخل الوزير القيروان مع الفقيه، فشق سماطها وسكن أهلها، فرجع الأمير إلى رقاده وأطلق المحبوسين بالجامع، وضرب الأمير دنانير ودراهم وسماها العاشرية، في كل دينار منها عشرة دراهم(١٤٤).

وصفوة القول: أنه كان لكثير من عُلَمَاء دولة الأغالبة جاه كبير لاسيما وقد كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يخشون في ذلك إلا الله تعالى، ولم يقتصر أمرهم بالمعروف ولا نهيهم عن المنكر على العَامَّة وحدهم، وإنما امتد إلى الخَاصَّة بما فيهم الحُكَّام ذوي السُّلْطَان(١٤٥).

رابعاً: دور العُلَمَاء في أعمال الحرب والجهاد:

كانت مشاركة علماء دولة الأغالبة في الحرب والجهاد، من عدة أوجه، فكانوا يحرصون على حضور بعض سباقات الخيل ويشجعونها على الفوز إذ أنها عُدَّة الجهاد، كما كانوا من أكثر النَّاس مرابطة في الحصون، ويتدربون كثيراً على محاربة الأعداء، ويصنفون المصنفات في فضائل الجهاد ومحاربة الأعداء، كما اشتركوا مباشرة في كثير من الحروب.

فمن حضورهم سباقات الخيل حضور الفقيه عبد الخالق المتعبد[ت٢١٠هـ/٨٢٥م] أحد سباقات الخيل ووصفه بالمحضر الصَّالِح وأن الملائكة تشهده، فسبق واحد من الخيل، فجعل عبد الخالق يتَخَلَّلُ النَّاسَ حتى انتهى إلى الفرس السَّابِق، فجعل يُقَبِّلُ جَحْفَلَتَهُ(١٤٦)، ويقول: بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، صبرت فظفرت(١٤٧).

أَمَّا حرصهم على المرابطة، فأمثلتها كثيرة منها: كان الفقيه عنبسة الغافقي[ت٢١٠هـ/ ٨٢٥م](١٤٨)يسكن في حصن على البحر يقال له: "يُنْقَة"- ويقع غرب سفاقس(١٤٩)- وكان الفقيهين موسى الصمادحي[ت٢٢٥هـ/٨٤٠م](١٥٠)وسحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م] يرابطان بالمُنَسْتِير(١٥١)في رمضان(١٥٢). وكان يسكن قصر زياد(١٥٣)بساحل إفريقية أربعة عشر رجلاً من أصحاب سحنون منهم الفقيه ثابت بن سليمان(١٥٤)، حتى سمي القصر بدار مالك؛ لكثرة من فيه من العُلَمَاء والعَبَّاد من أصحاب الإمام مالك(١٥٥). ولزم الفقيه عبد الرحيم المستجاب[ت٢٤٧هـ/٨٦١م](١٥٦)الرِّبَاط حتى مات(١٥٧). وكان المتعبد واصل بن عبد الله الجُمّي[ت٢٥٢هـ/٨٦٥م](١٥٨)يلزم الرِّبَاط(١٥٩). وسكن الفقيه سعيد بن إسحاق الكلبي[ت٢٩٥هـ/٩٠٧م](١٦٠)في قصر الطُّوب، وكان كثير الرِّبَاط(١٦١). وكثيراً ما كان الفقيه جبلة الصَّدَفِي[ت٢٩٩هـ/٩١١م] يتردد إلى قصر الطُّوب للرِّبَاط(١٦٢). كما عرف عن الفقيه سعيد بن حَكْمُون[ت بعد٣٠٧هـ/٩١٩م] سُكنى الرِّبَاط(١٦٣).

ونقل سعيد عن والده الفقيه خلف بن محمد السرتي[ت٣١٩هـ/٩٣٠م](١٦٤)أنه كان يخرج مع والده الفقيه إلى الرِّبَاط فينزل قصر سهل(١٦٥)وكان يحسن الفروسية، مولعاً بشراء الخيل ويخرج للرِّبَاط بها للحرس على المسلمين، وكان يخرج إلى سوسة هو وأحمد بن سعدون

الأربسي[ت٣٢٣هـ/٩٣٥م][١٦٦]وأبو بكر بن أبي عقبة، فيقفون صفاً واحداً كأن العدو بين أيديهم ويجرون خيلهم في ذلك الموضع حتى تطلع الشَّمْس[١٦٧].

كما حرص عُلَمَاء دولة الأغالبة على تصنيف الكتب في فضائل الجهاد ومحاربة الأعداء، وبرز في هذا الشَّأْن الفقيه محمد بن سحنون[ت٢٥٥هـ/٨٦٨م] الذي أَلَّف في مسائل الجهاد عشرين جزءاً[١٦٨]. وصَنَّف الفقيه يحيى بن عمر الكندي[ت٢٨٩هـ/٩٠٢م][١٦٩]كتاب: "أحمية الحصون"، وكتاب: "فضل المُنَسْتِير والرِّبَاط"[١٧٠]، ويُسمى: فضائل المُرَابَطَة[١٧١]. كذلك صَنَّف الفقيه يوسف بن مسرور[ت٣٢٤هـ/٩٣٦م][١٧٢]في أحمية الحصون كتاباً وما يجب على سُكَّان الحصون أن يعملوا به[١٧٣]. وكان الفقيه عبد المؤمن بن مُسْتَنِير الجَزَرِي[١٧٤]كثير الرِّوَايَة لرغائب الرِّبَاط. قال أبو العرب: أخبرني أبو عَيَّاشِ بن موسى، قال: رأيت الفقيه عبد المؤمن على برذون[١٧٥]راكباً يشول[١٧٦]به في الزُّقَاق، أظنه قال: يحرِّض النَّاس على الرِّبَاط[١٧٧].

مشاركة العُلَمَاء المباشرة في الحروب والجهاد:

شارك العُلَمَاء في كثير من الحروب، واستطاعوا أن يحققوا انتصارات كثيرة على أعداء الدَّولَة، وكان لهذه الانتصارات والفتوح من باب مشاركة العُلَمَاء السِّيَاسِيَّة؛ إذ أدخلت بلداناً وجزراً في شمال قارة إفريقيا وجنوب أوربا إلى حوزة دولة الأغالبة، ولعل من أشهرها جزيرة صقلية.

فتح صقلية:

يعتبر فتح الأغالبة لها سنة٢١٢هـ/٨٢٧م من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الإسلامية؛ إذ ترتب على فتحها انتقال السيادة في البحر المتوسط الغربي إلى المغرب الإسلامي[١٧٨].

وقد اختلفت المصادر حول الأسباب المباشرة للفتح فقد ذكر المالكي وتبعه اليحصبي والدَّبَّاغ وابن ناجي أن السَّبَب: نقض الرُّوم للهدنة المبرمة مع المسلمين في عهد الأمير عبد الله بن إبراهيم– ثاني أمراء الأغالبة– إذ قد كان من شروطها أنه من دخل إلى صقلية من المسلمين وأراد أن يرجع إلى المسلمين كان على الرُّوم رده، وفي أَيَّام زيادة الله بن إبراهيم– ثالث أمراء الأغالبة– جاء رسل من صقلية عليهم رجل يدعى: "فيمه"، وفي تلك الأثناء شاع بأن عند الرُّوم أسرى من

المسلمين، وبعد التحقيق مع الرَّسُل تَبَيَّن أن الأمر صحيح، فيكون الرُّوم قد نقضوا العهد فأمر زيادة الله بغزو صقلية وأسند ذلك إلى أسد بن الفرات(١٧٩).

أَمَّا ابن الأثير فيرى أن السَّبَب: لجوء فيمه– وسماه فيمي– إلى زيادة الله يطلب منه النَّجْدَة ضد "بلاطة" الذي عينه فيمي على ناحية من صقلية والذي اشترك مع ميخائيل والي بلرم(١٨٠)– ابن عم بلاطة– ضد "فيمي" واشتبكا ضد فيمي واستوليا على سَرْقُوسَة(١٨١)بعد أن هزموه(١٨٢). ولعل الرَّأْي الأَوَّل هو الرَّاجِح لأنه الأقدم من النَّاحِية الزَّمَنِيَّة.

وقد جاء في أسباب فتح صقلية: اتجاه الأغالبة إلى اصطناع سياسة بحرية، وأهمية صقلية من الناحيتين الاقتصادية والحربية، والجهاد في سبيل الله، والتخلص من العناصر الثَّائِرة في البلاد، واستنصار "فيمي" قائد الأسطول البيزنطي بزيادة الله(١٨٣). وقد أشار أحد المستشرقين(١٨٤)أن من أسباب فتح صقلية: أن تكون وسيلة وقائية ضد الهجمات المسيحية، وفي الوقت نفسه عودة مرة أخرى للسياسة الهجومية أَيَّام الأُمَوِيين.

فخرج الفقيه أسد لفتحها في ربيع الأَوَّل٢١٢هـ/مايو٨٢٧م، وهو على قضاء إفريقية من سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م، فكان قاضياً وأميراً، وكان في جيشه نحواً من عشرة آلاف رجل منهم تسعمائة فارس(١٨٥)، وقيل اجتمع له سبعون مركباً حمل فيها سبعمائة فرس(١٨٦)، فجاهد بها الرُّوم وقاتلهم قتالاً عظيماً، وقد روي أن أسداً لَمَّا وصل إلى صقلية زحف "بلاطة" ملك صقلية في نحو خمسين ومائة ألف مقاتل، وكان أسد يحمل اللُّوَاء وهو يزمزم فحملوا عليه، وأقبل على قراءة سورة يس ولَمَّا فرغ من قراءتها قال للمسلمين: "هؤلاء عجم السَّاحل هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم" وحمل باللُّواء وحمل المسلمين معه فهزم الله تعالى "بلاطة" وأصحابه(١٨٧).

واستولى المسلمون بقيادة أسد بن الفرات على عِدَّة حصون من الجزيرة، ووصلوا إلى قلعة تعرف بقلعة الكُرَّاث(١٨٨)، وقد اجتمع إليها خلق كثير، فخادعوا أسد بأن أعطوه الجزية، وسألوه أن لا يقترب منهم فأجابهم إلى ذلك، وتأَخَّر عنهم أيَّاماً، فاستعدوا للحصار، وامتنعوا عليه، وناصبهم الحرب، وبث السَّرَايَا في كل ناحية، فغنموا شيئاً كثيراً، وافتتحوا عمراناً كثيراً حول سَرْقُوسَة، وحاصروا

سَرْقُوسَة براً وبحراً، ولحقته الأمداد من إفريقيَّة، فسار إليهم والي "بلرم" في عساكر كثيرة، فخندق المسلمون عليهم، وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة، فحمل الرُّوم عليهم، فسقط في تلك الحفر كثير منهم فقتلوا، ضَيَّق المسلمون على سَرْقُوسَة(١٨٩).

وأَمَّا عن وفاة قائد الحملة– أسد بن الفرات– فقد اختلف فيه، فيرى المالكي وأبو الفضل اليحصبي أنه توفي من جراحات أصابته وهو يحاصر سَرْقُوسَة في ربيع الآخر٢١٣هـ/ أغسطس ٨٢٨م ودفن بذلك الموضع(١٩٠). بينما ذكر ابن الأثير أنه حل بالمسلمين وباء شديد سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م قَتَل كثيراً منهم، وهلك فيه أميرهم أسد بن الفُرَات(١٩١). في حين لم يذكر كثير من المؤرخين لوفاته سبباً واكتفوا بقولهم: توفي بصقلية وهو يحاصر سَرْقُوسَة(١٩٢).

وكان أيضاً قد غزا جزيرة سَرْدانِيَّة(١٩٣)، فأشرف على فتحها، وحسده بعض من كان معه فانهزم، وبلغ ذلك الأمير فقال له: بلغني كذا. فسم لي من فعل ذلك، فلم يفعل(١٩٤).

وقد خرج عدد من أهل العلم مع أسد بن الفرات(١٩٥)، منهم الفقيهان محمد بن قادم(١٩٦) وابنه أحمد[ت٢٤٧هـ/٨٦١م](١٩٧)، وكان قد اختلف كل من أسد ومحمد؛ لأن أسداً لَمَّا وصل بالمسلمين إلى صقلية أخذهم الجوع حتى أكلوا لحم الخيل فمشى النَّاس إلى "ابن قادم" الذي قال لأسد: "ارجع بنا إلى إفريقية فإن حياة رجل مسلم أحب إلينا من أهل الشرك كلهم"، فقل له أسد: "ما كنت لأكسر غزوة عن المسلمين ففي المسلمين خير كثير"، فأبى عليه النَّاس ذلك فأراد إحراق المراكب، فقال ابن قادم: "على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان" فتناوله أسد بالسوط فضربه أسواطاً يسيرة، ثم تمادت عزيمة ابن قادم وقاتل الرُّوم قتالاً شديداً(١٩٨).

وشارك الفقيه سحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م] أقرانه العُلَمَاء أيضاً في غزو صفاقس(١٩٩)، منهم الفقيه محمد بن عبد الرحمن الرُّعَينِي(٢٠٠). وركب يزيد بن محمد الجُمَحِي[ت٢١٢هـ/٨٢٧م](٢٠١) من إفريقية في البحر يريد المرابطة والجهاد بثغر المَصِّيصَة(٢٠٢)فخرج عليهم أهل صقلية فاستشهد(٢٠٣). وخرج الفقيه أبو الخليل هشام بن الخليل(٢٠٤)غازياً في البحر، فأسر هو وأصحابه، فَلَمَّا قربوهم من

القتل، قال لهم أبو الخليل: اجعلوني آخر من تقتلونه، فإني أمهلتهم ليكون ثوابهم لي، فقتلوهم قبله، ثم قربوه وقتلوه سمع لسانه في رأسه يقول: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}(٢٠٥).

كما استشهد كل من المتعبد أبو إبراهيم الخراساني وأبو زكريا الهِرَقْلِي(٢٠٦)على أبواب مدينة روما، في إحدى محاولات فتحها فيما بين سنتي٢٣٤ و ٢٤٠هـ، وكانت وفاة الخراساني أسبق من وفاة صاحبه فجعل يقول: "يا رب خرجت أنا وصاحبي في حاجة فقضيت حاجته وتركت حاجتي؟" فخرج جماعة من الرُّوم فجأة فقتلوا أبا زكريا(٢٠٧).

وهذا الفقيه محمد بن سحنون[ت٢٥٥هـ/٨٦٨م] قد خرج من القيروان إلى قصر الطُّوب للعبادة والحرس، وبينما هو هناك نزلت قوات من الرُّوم بساحل ذلك البحر، فتصايح النَّاس، ولم يكن مع الفقيه إلا بغل فخاف إن بعث إلى سوسة في طلب فرس أن ينال الرُّوم من المسلمين بغيتهم، فتقلد بسيف وأخذ رمحاً ودرقة، وركب البغل، واجتمع إليه النَّاس في جماعة من المرابطين ومن بقرب من القصر من أهل البوادي التي حوله، وتمادى بمن معه إلى الرُّوم فوجدوهم قد أشرفوا على نهب الأموال وسبي الحريم، فكَبَّر عليهم هو ومن معه وقد ناشبوهم القتال، فهزمهم الله على يديه، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأتعبهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هاربين، فحلف محمد بعد ذلك أنه لا يخرج إلى الحرس إلا بفرس(٢٠٨).

وأرسل الأمير زيادة الله بن الأغلب سنة٢٩١هـ/٩٠٣م مائتي عالم من أهل الفقه والقرآن بإفريقية إلى مدينة تونس رماة مستظهراً بهم على أبي عبد الله الشِّيعِي، فأظهر الفقهاء لعنه والبراءة منه، وحرضوا النَّاس على قتله وأفتوهم بمجاهدته(٢٠٩). وكان الفقيه سعدون بن أحمد الخولاني[ت٣٢٤هـ/٩٣٦م](٢١٠)من الفقهاء المتعبدين المرابطين بقصر المُنَسْتِير، وقال: "غزوت بضعاً وسبعين غزوة لطلب الشَّهَادَة"(٢١١).

وهكذا كانت مشاركة علماء دولة الأغالبة في الحرب والجهاد، من الأهمية بمكان، فلم يتركوا باباً فيه إلا وقد طرقوه، إذ حرصوا على حضور بعض سباقات الخيل، مثل حضور الفقيه عبد الخالق المتعبد[ت٢١٠هـ/٨٢٥م]، كما أكثروا من المرابطة في الحصون، بل كان منهم مَنْ يلزم

الرِّبَاط حتى توافيه المَنِيَّة، مثل الفقيه عبد الرحيم المستجاب[ت٢٤٧هـ/٨٦١م]، كما حرص عُلَمَاء دولة الأغالبة على تصنيف الكتب في فضائل الجهاد ومحاربة الأعداء، وبرز في هذا الشَّأْن الفقيه يحيى بن عمر الكندي[ت٢٨٩هـ/٩٠٢م] كتاب: "أحمية الحصون"، وكتاب: "فضل المُنَسْتِير والرِّبَاط". كذلك صَنَّف الفقيه يوسف بن مسرور[ت٣٢٤هـ/٩٣٦م] في أحمية الحصون كتاباً وما يجب على سُكَّان الحصون أن يعملوا به. وكان الفقيه عبد المؤمن بن مُسْتَنِير الجَزَرِي كثير الرِّوَايَة لرغائب الرِّبَاط.

كما اشتركوا مباشرة في كثير من الحروب، وحققوا كثيراً من الانتصارات والفتوح، ويأتي ذلك من باب مشاركتهم السِّيَاسِيَّة؛ إذ أدخلت هذه الحروب التي شاركوا فيها بلداناً وجزراً إلى حوزة دولة الأغالبة، كان أشهرها جزيرة صقلية فقد استطاع الفقيه أسد بن الفرات أن يستولي على قلعة الكُرَّاث، وأن يبث السَّرَايَا في كل ناحية، وافتتحوا عمراناً كثيراً حول سَرْقُوسَة، وحاصروا سَرْقُوسَة براً وبحراً، وكان أيضاً قد غزا جزيرة سَرْدانِيَّة، وشارك الفقيه سحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م] أقرانه العُلَمَاء أيضاً في غزو صفاقس، كما اشترك غير واحد من العُلَمَاء في محاولة فتح مدينة روما فيما بين سنتي٢٣٤ و٢٤٠هـ.

الخاتمة:

تَبَيَّن من خلال الدراسة أن للعُلَمَاء مكانة عالية ودرجة رفيعة عند السَّاسَة والمجتمع في دولة الأغالبة، ومن الأدلة على ذلك الاهتمام البالغ من الحُكَّام والمجتمع بالعُلَمَاء وأحوالهم، والتَّفَاعُل الشَّدِيد مع أحداث حياتهم فرحاً وحزناً، ومن ذلك حادثة قتل القائد أبو فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب للعالم عَبَّاس بن الفَارِسِي[ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م].

وكان من أدلة ذلك أيضاً زيارات السَّاسَة من الأُمَرَاء وغيرهم للعُلَمَاء، مثل زيارة الأمير أحمد بن محمد الأغلب للفقيه دحيم الضَّرِير المتعبد، وطلب الأمير الدُّعَاء من الفقيه.

كما أن هذه المكانة العالية تعدت حدود دولة الأغالبة، ووصلت إلى الخلافة، ومن أدلة ذلك مكاتبة الخليفة هارون الرَّشِيد[١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م] للقاضي ابن غانم[ت١٩٠هـ/ ٨٠٦م] بأسلوب يعلي قدره على حاكم دولة الأغالبة.

وعلى هذا النَّحْو من تلك المكانة جاء الدَّور الكبير للعُلَمَاء في الدَّولَة لاسيما في الجانب السِّيَاسِي. ولعل أهم ما قام به هؤلاء العُلَمَاء من دور سياسي هو تثبيت حُكْم الأغالبة، حيث رفضوا دعوات الخروج على الحُكَّام الأغالبة، ويذكر هنا موقف الفقيه الشيخ أسد بن الفرات [ت٢١٤هـ/٨٢٩م]، حيث رفض دعوة الثَّائر عمران بن مُجَالِد الرَّبَعِي[ت٢٠٠هـ/٨١٥م] الذي ثار على الأمير إبراهيم بن الأغلب.

وحيث سعوا أيضاً جاهدين للتقريب بين الحُكَّام الأغالبة ومن يثور عليهم أو يهدد سلطانهم، ومن ذلك سعي الفقيه يحيى بن سلام[ت٢٠٠هـ/٨١٥م] للتقريب بين عمران بن مُجَالِد الرَّبَعِي وبين الأمير عبد الله بن الأغلب.

ويأتي في إطار الدَّور السِّيَاسِي للعُلَمَاء الأغالبة، الدُّعَاء للحُكَّام وتذكيرهم بشئون الرَّعِيَّة، وفي هذا الإطار تأتي علاقة العُلَمَاء بالحُكَّام الأغالبة، وقد تميزت هذه العلاقة بما حفظ للعُلَمَاء مكانتهم وأعلى قدرهم، ومن ذلك عزة هؤلاء العُلَمَاء وعدم قبولهم هبات وعطايا الحُكَّام الأغالبة مثلما كانت العادة مع الكثير من العُلَمَاء في العصور التاريخية المختلفة.

وكذلك جرأت العُلَمَاء على الحُكَّام الأغالبة، ومن ذلك موقف الفقيه عبد الخالق المتعبد [ت٢١٠هـ/٨٢٥م] مع الأمير إبراهيم بن الأغلب، وموقف الفقيه أحمد بن أبي مُحْرِز[ت٢٢١هـ/ ٨٣٦م] من الأمير زيادة الله بن إبراهيم، وموقف الفقيه سحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م] من الأمير محمد بن أبي الأغلب.

وقد شهدت علاقة العُلَمَاء بالولاة وأصحاب النُّفُوذ السِّيَاسِي أواصر طيبة في كثير من أحوال كثيرة، جاء في إطارها تولي بعض العُلَمَاء مراكز مُهِمَّة في الدَّولَة، فقد فوض الأمير إبراهيم بن أحمد إلى القاضي عبد الله بن أحمد بن طالب[ت٢٧٥هـ/٨٨٨م] النَّظَر في الولاة والجباة والحدود

والقصاص والعزل والولاية. وربما كان ذلك واضحاً أيضاً في كثرة إكرام وتعظيم الأمير إبراهيم بن الأغلب للقاضي عبد الله بن غانم[ت١٩٠هـ/٨٠٦م].

وقد حرص العُلَمَاء الأغالبة في المشاركة في الجهاد والحروب المختلفة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك الدَّور الكبير الذي قام به العالم والفقيه المشهور أسد بن الفرات في فتح صقلية، ومشاركة الفقيه سحنون[ت٢٤٠هـ/٨٥٤م] أقرانه العُلَمَاء أيضاً في غزو صفاقس.

الملاحق:

خارطة دولة الأغالبة في أوج اتساعها(٢١٢)

الحواشي:

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود[ت٢٧٩هـ/٨٩٢م]: فتوح البلدان، مكتبة الهلال- بيروت- ١٩٨٨م، صـ٢٣٠.

(٢) د. نجوى عثمان: مساجد القيروان، دار عكرمة- دمشق- ٢٠٠٠م، صـ٢٨.

(٣) ذُكِرَ أنه كان في أول نشأته كثير الطلب للعلم والاختلاف إلى الفقيه الليث بن سعد الذي وهب له جلاجِل أم ابنه زيادة الله. الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم[ت بعد٤٢٥هـ/١٠٣٣م]: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: د. عبد الله العلي الزيدان، دار الغرب الإسلامي- بيروت-١٩٩٠م، صـ١٧٦، ابن الأَبَّار، أبو عبد الله محمد بن عبد

الله بن أبي بكر القُضَاعِي[ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م]: الحُلة السُّيَرَاء، تحقيق: د. حسين مؤنس، دار المعارف- القاهرة- ط٢، ١٩٨٥م، جـ١ صـ٩٣.

(٤) الزَّاب: بلاد واسعة تقع إلى الغرب من القيروان بينهما عشر مراحل. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر [ت بعد٢٩٢هـ/٩٠٥م]: البلدان، دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٢٢هـ، صـ١٩٠.

(٥) ابن الأثير، عز الدِّين أبو الحَسَن عَلِي بن أبي الكرم الجَزَرِي[ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م]: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، جـ٥ صـ٣٠٢.

(٦) د. عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي- الدَّار البيضاء- ط٥، ١٩٩٦م، صـ١٤٦.

(٧) فمن ذلك ضربه للفقيه البهلول بن راشد[ت١٨٣هـ/٧٩٩م] بالسياط. أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي[ت٣٣٣هـ/٩٤٥م]: طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني- بيروت- (د.ت)، صـ٥٩.

(٨) الرقيق القيرواني: السَّابِق، صـ صـ١٦٩، ١٧٠.

(٩) ابن الأثير: السَّابِق، جـ٥ صـ٣١٨.

(١٠) الرقيق القيرواني: السَّابِق، صـ١٧٨: ١٨٠.

(١١) ابن خلدون، عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد[ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م]: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر- بيروت- ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، جـ٣ صـ٢٨٦، د. محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاولت الثقافية ٢٠١٠م، جـ٣ صـ١٢٨.

J Farrugia de Candia: Monnaies aghlabides du musèe du Bardo, R.T, 1935 ,p272 (12)et.

(١٣) ابن الأَبَّار: الحُلة السُّيَرَاء، جـ١ صـ صـ١٦٣، ١٦٤.

(١٤) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية ١٩٤٨م، جـ٢ صـ٧١.

(١٥) البلاذري: السَّابِق، صـ٢٣١، الرقيق القيرواني: السَّابِق، صـ١٨٧.

(١٦) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي[ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م]: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٩٩٢م، جـ٢ صـ٦٧٩، ابن الأَبَّار: الحُلة السُّيَرَاء، جـ١ صـ١٧٢.

(١٧) جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، مراجعة: د. مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة الانتصار- الإسكندرية- ١٩٩١م، صـ٦٣.